



مركز سام للدراسات الإستراتيجية SAM CENTER FOR STRATEGIC STUDIES

الأزمة بين موسكو وأنقرة.. إدلب في عين العاصفة!

مدخل:

انتهى شهر العسل المؤقت أو الزائف، الذي فرضته المصالح بين الأتراك والروس، وصارت الأمور تصادمية، ووصلت إلى مستوى التصادم بالحديد والنار في شمال سوريا.

وفي حقيقة الأمر؛ فإن الأمر كان متوقعًا؛ حيث إن الأصل في الموقف التركي التباعد الكامل عن الموقف الروسي، في الملف السوري برمته، وخصوصًا في نقطتين، إحداهما مثلت ركنًا ركينًا في الإستراتيجية الروسية في سوريا، وهي ضرورة الإبقاء على الرئيس السوري بشار الأسد، ونظامه والدولة السورية بشكل عام.

النقطة الثانية لدى الروس؛ وكانت بيدقًا مهمًا في ملاعبة الأتراك واستنزاف أكبر قدر ممكن من التنازلات في مواقفهم في الملف السوري، هي البيدق الكردي.

وفي هذا الصدد؛ لسنا مبالغين إذا ما قلنا إن السياسة التركية في المنطقة، وليس في سوريا فحسب، في مرحلة ما بعد العام 2014م، عندما بدأ الأكراد في التحرك عسكريًا في الشمال السوري، من أقصاه الشرقي عند "الحسكة"، وحتى أقصاه الغربي عند "عفرين"؛ قد انبنت على متطلبات التعامل مع الموضوع الكردي.

في هذا الإطار، ومع وضوح خيانة الأمريكيين بحسب توصيف الرئيس التركي رجب طيب أردوغان، للأتراك في سابق وعود لهم بضمان سيطرة تركية على المناطق الواقعة في شمال العراق، وشمال سوريا، والتي انتزعتها معاهدة "لوزان" الثانية، في العام 1923م، والتي أنهت الوجود



مركز سام للدراسات الاستراتيجية SAM CENTER FOR STRATEGIC STUDIES

القانوني والجيوسياسي للدولة العثمانية، واعترفت بالجمهورية التركية؛ نقول مع وضوح ذلك؛ فإن الملف الكردي صار هو المحرك الرئيسي للسياسات التركية في الحرب السورية.

وحتى قبل فترة قريبة، كانت الأولوية التركية، قد ابتعدت عن منطقة تنحي الرئيس السوري، بشار الأسد، بل وصل الأمر إلى مستوى أن صار أردوغان - بعد بدء عمليتي "الأستانة"، و"سوتشي" الروسيين - يطلق على الأسد مسمى "الرئيس السوري"، وتراجعت اتهاماته بينما قال وزير الخارجية التركي مولود جاويش أوغلو، قبل قريب، إن النظام السوري لم يعد يشكل خطراً على تركيا.

وفي تقديرات مراقبين؛ فإن ذلك كان يعني تراجع أولوية تركية مهمة كانت وراء تدخلها الواسع النطاق في الحرب السورية، قبل سنوات، بل إن هذا التدخل كان هو مفتاح الحرب ذاتها بالتعاون مع حكومات إقليمية، مثل الرياض والدوحة، وهي أولوية إسقاط نظام الأسد.

إلا أن الفترة الأخيرة شهدت تحولات مفاجئة فعلاً في لغة الخطاب والمواقف الرسمية التركية، بحيث عادت إلى قديمها، باتهام الأسد بالإرهاب، وتأكيدات أردوغان على أنه لا مستقبل للأسد في سوريا ما بعد الحرب، وكان أوضح هذه التأكيدات، ما ذكره أردوغان يوم الجمعة 5 يناير، خلال مؤتمر صحفي عقده في العاصمة الفرنسية باريس مع نظيره الفرنسي، إيمانويل ماكرون، عندما أكد أن السياسة الرسمية التركية في الموضوع السوري تستند على ثابت مهم، وهو أنه لا مستقبل للأسد في سوريا، وضرورة إجراء انتخابات نزيهة.

وهناك من أرجع هذه التراجعات في المواقف التركية الرسمية إزاء الحرب في سوريا، فيما يخص النظام السوري إلى أن أردوغان والحكومة التركية قد رأت في الكثير من التقديرات الإعلامية ودراسات الرأي العام التي صدرت في الأشهر الأخيرة، ما يفيد بأنه قد خصم من شعبيتها



مركز سمرقند للدراسات الاستراتيجية SAM CENTER FOR STRATEGIC STUDIES

ومصادقيتها الكثير عندما تراجعت عن غالبية دعمها للفصائل المسلحة في سوريا، وعن كثير من موافقها المبدئية السابقة في سوريا، استجابة لمصالح عدة، واقتصادية، وأمنية وسياسية مع روسيا وإيران، غالبيتها تتعلق بالملف الكردي.

لكن لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون هذا هو التفسير الوحيد؛ حيث الحكومة التركية وأردوغان من أكثر الأطراف والشخصيات براجماتية؛ والأمر متصل بمصالح تركية حقيقية تجد في السياسات الروسية إزائها في الوقت الراهن، الكثير من المساس بها، وهو ما تحاول هذه الورقة مناقشته.

الأتراك بين إدلب والأكراد ومساومات الروس:

يمكن القول إن الموضوع إنما يتصل بـ"أزمة مبادلات". فالروس الآن يريدون إنهاء الحرب في سوريا، والبدء في حصد مكتسبات سنوات من التدخل العسكري كان له مغارمه الاقتصادية والسياسية والأمنية على الروس.

وبدا ذلك في الاستحواذ الروسي المتسارع على عقود إعادة الإعمار في سوريا من قبل حتى أن تضع الحرب أوزارها، بالإضافة إلى تعضيد الوجود العسكري الروسي في سوريا، ومن بين أهم معالم ذلك الاتفاق الأخير الذي صادق عليه الرئيس الروسي فلاديمير بوتين ومجلس "الدوما" الروسي، بشأن احتفاظ روسيا بحق التواجد في قاعدة "حميميم" الجوية السورية، لمدة خمسين عاماً قابلة للتجديد، مع عدم أحقية السلطات السورية في دخولها.



مركز سيم للدراسات الإستراتيجية SAM CENTER FOR STRATEGIC STUDIES

وبالرغم من تعدد المناطق التي تسيطر عليها المعارضة السورية والفصائل "الإسلامية" المسلحة في سوريا، ومن بينها مناطق حول العاصمة السورية دمشق ذاتها؛ إلا أنه تبقى أن أهم عوائق إعلان الروس وحلفائهم في طهران ودمشق الانتصار النهائي في سوريا، مثلما تم الإعلان عن الانتصار على تنظيم الدولة "داعش" الإرهابي، هي منطقة إدلب.

ففي هذه المنطقة تجمعت حشود كثيفة تقدر بحوالي ستين ألف مسلح، قدموا إلى هذه المنطقة عبر صفقات سرية ومعلنة بين حكومات وجماعات سورية وغير سورية، بما فيها الحكومة السورية والحكومة اللبنانية و"حزب الله"، لإجلاء المسلحين وأسرتهم من مناطق ومدن بعينها، وتسليمها إلى الحكومتين السورية واللبنانية، مثلما تم في منطقة "عرسال" اللبنانية، والمدن السورية الكبرى مثل "حمص" و"حماة".

كانت وجهة هؤلاء جميعاً هم إدلب التي هي الآن تحت سيطرة مشتركة بين هذه الفصائل ووحدات مراقبة وأخرى مسلحة تركية متمركزة، بالإضافة إلى هيئة تحرير الشام، والتي تمثل "جبهة النصرة" عمودها الفقري، والتي سيطرت على المناطق التي توجد فيها الآن باتفاق مع "أحرار الشام"؛ الذراع المسلح لجماعة "الإخوان المسلمون" العالمية.

وسعت أنقرة من خلال التأسيس لهذا الوضع إلى أن تكون لديها ورقة تساوم بها موسكو، في موضوع مهم يتعلق بنقطة المركز الأساسية التي تنطلق منها المواقف والسياسات التركية في الملف السوري، وهي الأكراد.

فخلال الأشهر الماضية حاولت روسيا عقد مؤتمراً للحوار السوري في إطار عملية جنيف التي تقودها الأمم المتحدة، وبالفعل، وفي نهاية جولة مفاوضات "الأستانة" التي عقدت في نهاية أكتوبر الماضي، وجهت الحكومة الروسية الدعوة إلى 33 هيئة سياسية وعسكرية سورية، كان من بينها



مركز سيمر للدراستات الإستراتيجية SAM CENTER FOR STRATEGIC STUDIES

ثلاثة من القوى الكردية التي تسيطر في الوقت الراهن على غالبية المناطق الواقعة في قوس الشمال السوري، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، عدا مناطق سيطرة "النصرة" والقوات التركية في إدلب.

هذه القوى هي: "حزب كردستان السوري الديمقراطي" (الاتحاد الديمقراطي الكردستاني الذي تتهمه أنقرة بأنه امتداد لحزب العمال الكردستاني الانفصالي)، ومقره "عين العرب" أو كوباني بالكردية، وحزب الاتحاد السوري والمجلس الوطني الكردي، ومقرهما "القامشلي".

ونجحت ضغوط تركية على روسيا في تأجيل عقد الاجتماع بما أنه يضم الأكراد الذين يهددون الأمن القومي التركي في مقتل، إلى وقت غير محدد من مطلع العام الحالي 2018م.

وارتكزت هذه الضغوط التركية على زيادة الدعم المخصص لفصائل المعارضة السورية، وشمل ذلك أسلحة نوعية، مثل مضادات للطائرات محمولة على الكتف، وخارقات للدروع، بالإضافة إلى الإيعاز إلى "أحرار الشام" بإخلاء مواقعها في إدلب لصالح "النصرة" وفصائل "هيئة تحرير الشام"، في مقابل أن تضمن "هيئة تحرير الشام"، دخول القوات التركية إلى إدلب من دون تعويقها، وهو ما يدل على درجة "براجماتية" وطبيعة العقلية التي تحكم القرار في أنقرة في جماعة "الإخوان المسلمون" العالمية.

وبينما العالم كله الآن يبحث عن كيفية وقت الحرب في سوريا؛ بدأت الحكومة التركية في إسناد تشكيل مسلح جديد باسم "الجيش الوطني السوري"، في الريف الشمالي والشرقي لحلب، لكي يكون هو الأداة التركية الأساسية في معركة سوف تقع حتماً في "عفرين" على وجه الخصوص، مع قوات الحماية الكردية.



مركز الدراسات الإستراتيجية SAM CENTER FOR STRATEGIC STUDIES

كل هذه التحركات التركية في شمال وشمال غرب سوريا، وفي عمق محافظة إدلب، والتي تمتد بعمق مائة كيلومتر داخل الأراضي التركية، إنما هدفها الأساسي هو امتلاك أوراق ضغط قوية على الروس - والأمريكيين كذلك - فيما يخص ملف الأكراد على النحو الذي نتابعه في هذا الموضوع منذ فترة.

ولكن.. ماذا عن الموقف الروسي؟!..

الرؤية الروسية للأحداث:

بطبيعة الحال، وكما اتضح من واقع العلاقات الروسية التركية خلال الفترة التي تلت أزمة السوخوي في نوفمبر 2015م؛ فإن الروس ليسوا بالسذج، بحيث لا يفهمون ذلك، أو لا يكونون متوقعينه وقادرين على التعامل معه.

وبالفعل؛ فإن هناك الكثير من المحللين الروس يتكلمون الآن عن الموقف التركي على النحو المشار إليه، ومن بينهم محللون من مراكز بحثية مقرية من أجهزة صناعة واتخاذ في روسيا، مثل من بينهم، البرفيسور إيلينا سوبولينا، المستشارة في الكرملين، والعضو في المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية.

الروس أولاً؛ إنما يحاولون تفادي الدخول في معركة مدمرة يسقط فيها آلاف الضحايا، بسبب الصورة أمام المجتمع الدولي، ورغبة منهم في تحسين علاقاتهم مع الاتحاد الأوروبي الذي لا يزال يفرض عقوبات على موسكو، بسبب موقفها في الأزمة الأوكرانية، ولكنهم - أي الروس - غير عاجزين عن دخول معركة انتهازية في إدلب مع المجموعات المتواجدة هناك، خصوصاً وأن الشق



مركز سام للدراسات الإستراتيجية SAM CENTER FOR STRATEGIC STUDIES

القانوني متاح؛ حيث "النصرة" التي تسيطر على المنطقة أو أجزاء منها، مُصنّفة جماعة إرهابية لدى الأمم المتحدة ذاتها.

الأمر الآخر، أن الروس يريدون الورقة التركية في ملاعبة الغرب. أي أن أردوغان يلعب كـ"جوكر" مهم في يد بوتين في الصراع الأبدي بين روسيا والتحالف الغربي الذي يقوده الأمريكيون والبريطانيون.

ويستغل الروس في ذلك طبيعة أردوغان النارية، وأزمته الراهنة مع الولايات المتحدة والتي تتزامن مع خفوت أزمة تبقى قائمة بين تركيا والاتحاد الأوروبي، بسبب ملف الأكراد كذلك، وملف إيواء الولايات المتحدة لرجل الدين التركي فتح الله جولن، الذي يقود جماعة "الخدمة" أو ما يسميه أردوغان وإعلامه بـ"الكيان الموازي، ويتهمه بالتورط في المحاولة الانقلابية الفاشلة التي جرت في تركيا في منتصف يوليو 2016م.

الروس يريدون من خلال استدراج أردوغان كما تم وقت معركة في حلب، من أجل إضعاف حلف شمال الأطلسي "الناتو"، الذي تُعتبر تركيا من أهم أعضائه، وتقييد قدرة واشنطن ولندن على توظيف تركيا - كما الماضي خلال الحرب الباردة، وفي مرحلة ما بعد الخريف العربي الذي بدأ في 2010م - في إضعاف الدول والأنظمة الموالية لموسكو، كما تم مع الأسد، ومع معمر القذافي في ليبيا.

وهي سياسة أنجلو ساكسونية دائمة، بدءًا من سلوبودان ميلوسوفيتش في صربيا، وصولاً إلى الحكومات والأنظمة الموالية لفرنسا في مناطق وسط وغرب القارة الأفريقية.



مركز سام للدراسات الإستراتيجية SAM CENTER FOR STRATEGIC STUDIES

وفي هذا الإطار؛ فإن لبوتين كذلك أوراغه التي يمكن أن يساوم أردوغان بها، مثل صفقة صواريخ الدفاع الجوي المتقدمة، من طراز "إس. 400"، والتي يعتبر دخولها المنظومة العسكرية التركية بمثابة ضربة روسية لحلف "الناطو" الذي يمنع أعضائه من امتلاك منظومات تسليح من خارج هذا التحالف، وكذلك ضربة روسية للأمريكيين الذين يعاندونهم في ملف تسليح أكراد سوريا وملف جولن.

وفي هذا الإطار، يمكن فهم المماطلات الروسية في تسليم الأتراك هذه المنظومة، فتارة يتم التلكؤ بحجة عدم منح تركيا أحقية السيطرة الكاملة على المنظومة، ومرة بشأن التمويل، حتى وصل الأمر إلى أن يتم الإعلان عن تسليمها في أواخر العام 2019م؛ أي بعد عامين تقريباً، تكون خلالها معركة إدلب وربما الحرب السورية كلها، قد انتهت.

.....

في هذا الإطار؛ يبدو التلاعب واضحاً من كل من روسيا وتركيا، بينما يبقى أصحاب الشأن الأصليين؛ النظام السوري والعرب بشكل عام غائبين عن الصورة برغم أن معركة إدلب قد ترسم مصير أنظمة وحكومات أخرى في المنطقة، وتعيد ترتيب تموضعات كيانات وأنظمة وأمور عديدة في المنطقة العربية والشرق الأوسط بالكامل، ولكن لهذا موضع آخر من الحديث!

..*.*.*

أحمد التلاوي: باحث مصري في شؤون التنمية السياسية، وكاتب أساسي في مركز سام للدراسات الإستراتيجية